نظرة في دراسة إيطالية لوثيقة تمس العلاقات

بين الساحل والصحراء الكبرى

عبد الحميد الهرامة

ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على

جانبي الصحراء.

تطوان: كلية الدعوة الإسلامية, 1998

في العدد الأول لسنة 1932 من مجلة (تريبو ليتانيا) مقال بالإيطالية للكاتب توركواتو كورتي تحدث فيه عن شخصية معروفة في ليبيا باسم "أبو سعدية".

وهذه الشخصية ليست خيالية، فقد اعتمد الكاتب على وثيقة مخطوطة[1] ألحقها بالمقال، تقول إنه رجل من بلاد السودان احتاج في وطنه للسفر إلى بر طرابلس ليعيش هو وزوجته وابنته سعدية.

وفي الوثيقة ما يفيد أنهم "فكروا في حرفة تضحك الناظرين ليتفكهوا بهم ويعطوهم بعض الدراهم أو الأكل"، وهذكا بدأت مهمة "هذا الرجل" في طرابلس، وقد فكر في كل ما يجعل مهمته ناجحة ولم يفكر في أمن الطريق أو الاسترقاق له ولأفراد أسرته، وقد حل بطرابلس شخصية محبوبة مكرمة دون أن يمسه أذى في حوالي منتصف القرن التاسع عشر، ثم صارت شخصيته موضع محاكاة فكان يعمل بهذه المهنة ثلاث شخصيات سنة 1932. ولكن الكاتب الذي رسم شخصيته في المجلة الإيطالية كان متأثراً بما يروجه جواسيس الاستكشاف عن تنامي ظاهرة الاسترقاق في طريق – السودان الغربي لتغطية الأنظار عن النقد العالمي للاسترقاق الغربي للأفارقة، ولتهيئة الرأي العام العالمي لاحتلال الطريق التي تمثل أهم طرق التواصل الثقافي في علاقات (جنوب جنوب كما يُرمز لها حاليا) .

يقول الكاتب بعد أن استعرض القصة، ومهما يكن من أمر فلا يمكن التسليم بأن زنجياً غربياً

---

[1] هي من تأليف رجل يدعى سعد بن الشيباني.

مصحوباً بزوجته وابنته كان يستطيع الاضطلاع برحلة من "السودان" إلى طرابلس في حقبة سابقة لمطلع هذا القرن وبدون أن يقع في شراك النخاسين أو سواهم من العشائر.

وأردف قائلاً: وقد لا يجوز التسليم حتى وإن قالت الحكاية إن أبا سعدية كان يدين بالإسلام من قبل أن يباشر رحلته.. وعليه ينبغي إدراج قصة نشأة صاحب هذه الشخصية في عداد الأساطير التي لا أساس لها من الصحة.

يقول ذلك، وهو يعترف بأن أكبر الطرابلسيين الذين شاهدهم يزعمون (هكذا) أنهم شاهدوا هذا الرجل في طفولتهم، وهو الذي استخلص أن نشأة هذا المهرج كانت في منتصف القرن التاسع عشر.

إن هذا التشكيك في أمن الطريق السالك بين طرابلس وبلاد السودان يظهر في كثير من الدوريات والكتب الغربية التي كانت تمهد لقطع هذا الطريق التجاري المهم بدوافع إنسانية، فما جلية الأمر في هذا الطريق؟

إن قصة هذه الشخصية ليست سوى دليل واحد من أدلة كثيرة إلى حميمية العلاقات السودانية الطرابلسية في السنوات الخوالي، فالحجاج السودانيون ما فتئوا يستخدمون طريقهم إلى مكة عبر جنوب ليبيا، بل إن منهم من استخدم البحر مروراً بميناء طرابلس، ولم نسمع خلال هذه الرحلات السنوية أن أحداً تعرض لهم بسوء، وسجلات القضاء ووثائق التاريخ خالية من الحوادث من هذا القبيل.

ثم إن الوثائق التجارية التي كانت تُحصي البضائع المستوردة من وإلى السودان الغربي في تجارة القوافل لم تكن تحتوي من الرقيق إلا على عدد يسير كان يباع في أسواق النخاسة في السودان نفسه.

ولدينا نصوص تظهر عزوف التجار الليبيين عن تجارة الرقيق وتقول بالنص (لا خير في تجارتهم دنيا ولا أخرى)، وقد كانت فتاوى العلماء بتحريم الرقيق المجلوب من السودان ذات تأثير في الإحساس بالجفوة من هذه التجارة لدى التجار الطرابلسيين والغدامسيين[1].

وقبل صدور الفرمان التركي بتحرير الرقيق نجد بعض التجار الغدامسيين ينهى عملأه في السودان الغربي عن الاتجار بالعبيد.

إن أعداداً هائلة تبلغ عشرات الآلاف من المراسلات التجارية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في المدن الليبية والسودانية تظهر عكس ما شاع في الكتابات الغربية عن تنامي ظاهرة الرق في تجارة القوافل، وهي تنتظر أن ينفض الغبار عنها لتصبح شواهد حية على حميمية العلاقات بين المتساكنين على جانبي الصحراء.

ولقد نشرت بحثاً عن هذه الوثائق بمجلة جامعة ساي عنوانه "الوثائق المسافرة" وألحقت بكتاب

[1] انظر مثلاً على ذلك في المعيار للونشرسي 238/9 وهو كتاب مشهور في شمال وجنوب الصحراء، وانظر معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب السود لأحمد بابا التنبكتي نسخة خ ع – 100–1940.

(خبر السوق) موضوعات مشابهة تحاول إحصاء هذه الوثائق وتشير إلى بعض أماكن وجودها في انتظار أن يستخرج منها الدارسون الرد الحاسم على ادعاءات الغربيين في هذا الخصوص.

كما أن الأستاذ المرحوم بشير يوشع قد نشر في كتابه "وثائق غدامسية" عدداً من هذه الوثائق جديراً بالاطلاع والدراسة.

وكانت محاضرته عن الرق في غدامس التي ألقاها بمركز جهاد الليبيين بحثاً طريفاً يتناول هذه الظاهرة بالخصوص، ويثبت بالدليل التاريخي بطلان مزاعم الكتاب الغربيين في هذا الشأن.

وقد دلت بعض الأبحاث الغربية النزيهة عن تجارة القوافل بالجداول الدقيقة أهم البضائع المتبادلة بين الجانبين ولا يكاد يمثل الرق شيئاً يُذكر في ميزانها التجاري أو في ترتيب الأهمية، بل نجد كثيراً من الرحلات التجارية غير مشتملة على هذه البضاعة إطلاقاً، مع كونها موجودة في بلدان السودان الغربي معترفاً بها إلى بداية القرن العشرين.

وإنني أقترح تكوين فريق علمي لجمع وتحقيق الوثائق المبادلة بين دول الساحل والصحراء، وسيجد أمامه في الجماهيرية وحدها ما يقرب من ستة آلاف وثيقة جاهزة، في أماكن معروفة.

وفقكم الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الملحق: نصف الوثيقة

بقلم: سعد بن الشيباني*

أبو سعدية هو رجل أسود، من بلد السودان احتاج في وطنه[1] للسفر إلى بر طرابلس[2]،. أن يعيش هو وزوجته وابنته سعدية.

ولدى سفره صاروا يتدابرون عن تحصيل حرفة يتمعشون بها، وصار التفاهم أن يحترفوا حرفة "أبو سعدية"، كي كل من ينظرهم يضحك ويتفكه[3]) من لعبه ورفسه يؤدي لهم بعض شيء من الدراهم أو الأكل[4]) ليعيشوا به[5].

فأرادوا خدمة الحرفة المذكورة، ولكن يلزمه جلد[6]، ودنقة[7]، وعصابة صغيرة، ونصب من

* كاتب هذا النص عاش في النصف الأول من القرن العشرين ولم أقف على معلومات دقيقة عن حياته وتعليمه.

[1] أي مسته الحاجة في وطنه، وفي النص بعامة بعض التعابير الشعبية ذات المصطلح المحلي.

[2] كان يطلق بر طرابلس على جميع الأراضي الليبية حالياً.

[3] اجتهاد في قراءة كلمة غير واضحة.

[4] في الأصل: أو أكل.

[5] في الأصل: بهم.

[6] الجلد: يرتديه أبو سعدية لتمييزه عن الآخرين.

[7] الدنقة: طبل دائرة مجوف، يحدث إيقاعات تصاحب حركة أبي سعدية.

عقيق الودع ومرايات[1]، وبعض عظام الحيوان [.....[2]]، وهذا يحتاج لبعض دراهم لأجل شراء الحوائج المذكورات.

ولدى مرورهم وجدوا [دوارٍ] [3] وبه عرب ودخلوا في ذلك الدوار، [و] أخذ أبو سعدية من زوجته بعض أشياء فباعهم، واشترى نصيب عظام، وخيوط، وجلد، وعصابة صغيرة، ودنقة.

وربط كل عظم بخيط، وخيوط العظام بعضها[4] في حزامه حتى صارت العظام تنوش[5] بعضها يميناً وشمالاً، مثل الجلوال[6]، وجعل فوق رأسه طاقية من جلد مزينة من العقيق والمرايات، وجعل في أنفه عرف طير طويل، وجعله دنقة شعر الإبل، [ونوارات] [7] من سبيب الخيل حتى متى يلعب كل من ينظره يصير يضحك.

وأكثر معلوباته عن الشبان الصغار، فصاروا يخافون منه، بحيث إذا أحد الأطفال بكى وتشيطن في بيته[8] تخوفه والدته[9] بمجيء أبو سعدية فيسكت ويخاف. وهكذا أخذت العوائد إلى يومنا هذا، أو سعدية شيء مضحك ومطرب، وهذه الحرفة صارت[10] للتمعش.

وسبب اسمه "بو سعدية" لكونه وقت مجيئه إلى الوطن لم يعرفوا اسمه [فـ] [11] صاروا ينادونه[12] أبو سعدية لكون[13] بنته سعدية، وهذا حسب المسموعات عن البوسعدية.

[1] مرايات: يعني بها جمع مرآة.

[2] كلمة غير واضحة.

[3] دوار [كذا] ولعله يعني ربعاً.

[4] في الأصل: بعضهم جرياً على النسق العامي.

[5] في الأصل: في بعضها وهو استخدام عامي للعبارة.

[6] الجلوال: نوع من الغرابيل ذو ثقوب واسعة قياساً على المعتاد.

والجلوال: الثوب الدائري الفضفاض أو المشرط، يوضع في النصف الأسفل من الإنسان لجمال صورته في حال الرقص.

[7] في الأصل: ونوارت.

[8] في الأصل: في بيتهم.

[9] قدم الفاعل في الأصل على الفعل.

[10] في الأصل: صار.

[11] زيادة على الأصل.

[12] في الأصل: ينادون يه جرياً على الاستخدام العامي.

[13] في الأصل: لكونه.